المملكة المغربية
جامعة ابن زهر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
اكادير



سلسلة الدروس الافتتاحية
الدرس الثالث

علاقات المغرب بإفريقيا
ملاحظات أولية

الأستاذ عبد الله العروي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط

عضو أكاديمية المملكة المغربية
الرباط

عــلاقات المغـرب بإفريقا
مـلاحـظـات أوليـــة

الأستـاذ عبد الله العروي

درس إفتتاحـي
للسنـة الجامعيـة : 1986 ـــ 1987

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - 79.47.08/09/15
1997

علاقات المغرب بإفريقيا(*)
ملاحظات أولية

سيداتي سادتي،

إني مسرور غاية السرور أن أكون بين ظهرانكم في هذه المدينة الجميلة النشيطة المضيافة، التي كانت تعتبر من جنوب المملكة فأصبحت في أواسطها، مما فتح لها ولنشاط أبنائها آفاقا واسعة للتقدم والازدهار.

وأبتهج إذ أفتتح بحديثي هذا السنة الدراسية الجديدة لجامعتكم الفتية متمنيا أن تصبح في أمد قصير من أكبر المؤسسات التعليمية التي تفخر بإنجازاتها البلاد.

إن موقع مدينة أكدير وطموح أهلها وبعد نظر المسؤولين على تسيير شؤونها، رجال سلطة ومنتخبين، لضمان أن تكون جامعتكم في مقدمة المنفذين لذلك المشروع الثقافي الضخم الذي أعلن عنه صاحب الجلالة نصره الله أثناء الدورة الأخيرة للدروس الرمضانية، ألا وهو التعريف بالروابط التاريخية والدينية التي جمعت طوال قرون المغرب الأقصى وإفريقيا. مشروع ضخم يهدف إلى دراسة تلك الروابط في الماضي وإظهار مدى أهميتها في حياة الشعب المغربي والشعوب الإفريقية المجاورة دعما وإحقاقا لما جاء في رسالة صاحب الجلالة إلى رؤساء منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا سنة 1985 من أن المغرب بلد أفريقي وإنه سيبقى بلدا إفريقيا في كل الأحوال والظروف.

(*) هذا العنوان هو موضوع الدرس الافتتاحي الذي ألقاه الأستاذ عبد الله العروي في مطلع السنة الجامعية 1987/1986.

إني واثق أن جامعتكم ستشارك بهمة وحماس في تنفيذ المشروع، بل إنها ستحتل عن قرب مكانا طلائعيا فيه للأسباب التي سبق ذكرها والأخرى ستتجلى فيما يلحق من ملاحظات.

أيها السادة الكرام،

أود أن أتقدم أمامكم بملاحظات أولية منهجية حول دراسة العلاقات المغربية الإفريقية.

قد يتساءل البعض : لماذا هذا التحويم حول الموضوع وعدم التطرق إليه مباشرة مادامت أبوابه مفتوحة ودروبه مشهورة معروفة ؟

الحق أن الموضوع مُتداول منذ قرون إذ لا نستطيع أن نجد كتابا يتكلم عن تاريخ المغرب، الأكبر أو الأقصى، دون أن يذكر التجارة الصحراوية وأن يصف دورها في جعل المغرب حلقة وصل بين إفريقيا الغربية ودول حوض البحر الأبيض المتوسط.

من السهل إذن أن نقتطف أقوال المؤرخين القدامى وتعاليق المحدثين، أن نؤلف بين هذه وتلك لنصوغ خطابا متناسقا تهوي إليه نفوس المستمعين. لكن من طبيعة الدروس الافتتاحية أن تخالف المحاضرات التأنيسية، بل المفروض فيها أن تتوقف عند الخط الفاصل بين الحاضر والمستقبل، أن تلخص الأعمال المنجزة، تصادق على بعضها في حدود المتعارف وتتورع في شأن البعض الآخر، ثم انطلاقا من هذا التردد إزاء الشبهات تتساءل حول المشاريع المقترحة للبحث في السنوات المقبلة.

الدرس الافتتاحي بطبيعته تساؤلي إشكالي. يتناول كل الموضوعات التي يتطرق إليها بصفتها معروفة مجهولة. في هذا المقام وبالنسبة إلى علاقات المغرب بإفريقيا معروفة مجهولة، معروفة في مجملها، في خطوطها العريضة، مجهولة في دقائقها في عمقها، في آثارها المحددة. بعبارة أخرى علاقات المغرب بإفريقيا معروفة حسب شروط التاريخ الأدبي، مجهولة أو شبه مجهولة حسب شروط التاريخ العلمي.

إني أخاطب هنا طلبة نبهاء وأساتذة مطلعين وكلهم يعلمون أن التاريخ ظل زمنا طويلا يتبع مناهج لا تختلف في جوهرها عن مناهج أئمة اللغة والأدب، يروم تصوير كل واقعة على وجهها الظاهر، وأن التاريخ الحديث يطمع أن يفارق الأدب ليساكن العلوم الدقيقة فيهدف إلى إبدال الكم بالكيف. في نظر المؤرخ الحديث كل شيء معلوم كيفا يبقى مجهولا ما لم يعرف كما ومقدارا.

إني أعبر بهذه الكلمات عن طموح المؤرخين لا عن إنجازاتهم وهذه أيضا ظاهرة لازمة للدروس الافتتاحية، إذ تفتح العيون على آفاق بعيدة دون أن تعد بإمكان التنفيذ والتحقيق. واجبنا أن نوضح طموحاتنا لكي لا تكون متخلفة عما هو جار عند المنافسين لنا. وأما الإنجاز فيبقى موكولا للعزائم والهمم، موقوفا على الوسائل والظروف.

أتخذ إذن موضوع علاقات المغرب بإفريقيا ذريعة لأحدثكم أيها الطلبة الكرام، أيها الزملاء الأفاضل، عن موضوعي المحبب، موضوع المنهجية في الدراسات التاريخية خاصة وفي العلوم الإنسانية بوجه عام.

أيها السادة الكرام،

يروق لي كلما سنحت الفرصة أن أقرأ وثيقة تاريخية مهمة توجد ضمن أوراق الفقيه الوزير محمد بن الحسن الحجوي المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط والمؤرخة سنة 1911/1329، في الشهور الأخيرة من حكم السلطان المولى عبد الحفيظ.

تقول الوثيقة :

«إذا تأملنا خارطة المغرب من جهة **الجنوب** رأينا ذهاب الصحراء... ثم من جهة **الشرق** ضاع جزء عظيم بما فيه الظهراء... ومن جهة **الشمال الشرقي** ضاع الصقع الريفي ومن جهة **الغرب** الدار البيضاء... ومن جهة **الغرب الجنوبي** أرض شنكيط...».

نترك جانبا في هذا المقام المغزى السياسي وهو كما تتصورونه عظيم. ان الغاية من سرد هذا النص التاريخي هو نظرة مغاربة العهود السالفة إلى خارطة البلاد أو بعبارة أدق معرفة وجهة المغاربة والوجهة تعني هنا بالضرورة القبلة. لا شك أنكم تعجبتم من العبارات المستعملة في النص والراجعة إلى تحديد المواقع الجغرافية. وهنا نلمس بوضوح ضرورة تداخل التخصصات : التاريخ والجغرافية. لا يمكن أن نفهم تصور مغاربة القرن الماضي لموقع بلدهم على وجه الأرض إذا لم نعرف بالتدقيق اتجاه الطرق المتبعة في الأسفار وتلك الطرق هي في الحقيقة منذ قرون وقرون أرضية وسماوية في آن واحد، طرق المراحل ومنازل النجوم. ومن هنا نفهم لماذا احتوى المغرب دائما على عاصمتين، على مدينتين تعتبران رأسي طريقين اثنين : طريق يربط المغرب بمنزل الوحي، طريق طلب العلم، طريق الحج، وطريق ثان يربطه بمنبع الثروة من عبارات الفقيه الحجوي نلمس أن الطريقين جنوبيين معا، الأول جنوبي شرقي والثاني جنوبي غربي، الأول ينتهي إلى فاس والثاني إلى مراكش.

إن الخارطة كما نراها اليوم، كما فرضتها علينا الصناعة الخارطوغرافية الغربية تطمس هذه الحقيقة. لذلك يجب أن نتخيل خارطة متجهة وجهة أخرى، وجهة كانت عادية في القرون السالفة، وجهة تحمل مغزى تاريخيا عميقا. إن الخارطة الحالية تطمس بروز وأصالة الطريق الثاني جاعلة منه طريقا متفرعا عن الأول في حين أنه مواز له مضاه له في التأثير على تمسكان المغرب واقتصادياته.

كان هذا المدخل ضروريا لترتكز في أذهانكم، أيها السادة الكرام، الصورة الحقيقية لعلاقات المغرب بأفريقيا طوال القرون السالفة.

قلنا إن علاقات المغرب بأفريقيا معروفة ولو بكيفية مجملة. نعني بذلك أن قارىء كتب التاريخ المعاصرة يجد فيها تعليلات كثيرة تحيل على مايسمى عادة بالتجارة الصحراوية. والأمثلة على قولنا متعددة.

هذا جيروم كاركوبينو يكتب في مؤلفه الشهير **المغرب القديم** الصادر سنة 1947 بحثا مطولا بعنوان «المغرب سوق الذهب البونيقية» يحاول فيه أن يفسر ثروة قرطاجة وسر عداء روما لها باستئثارها لتجارة الذهب المجلوب من إفريقيا عبر طرق بحرية وبرية تمر كلها على التراب المغربي وتملأ مخازن العاصمة البونيقية.

نقرأ الكثير عند المؤرخين القدامى حول الصراع الطويل المرير بين الأمويين الحاكمين في الأندلس والفاطميين الحاكمين في تونس الحالية والذي كان موضوعه التحكم في شؤون المغرب الأقصى. التفسير التقليدي هو أن أصل الصراع مذهبي ولكن أصواتا كثيرة ارتفعت لتركز على الدوافع الاقتصادية فتؤكد : لم يكن الهدف من الصراع الاستيلاء على أرض المغرب بقدر ما كان أشخاص موفدون من قبل دعاة الشيعة للتعرف على أرض المغرب وبخاصة على تخومه الصحراوية، ونذكر بالضبط ابن حوقل المتوفي سنة 977/367.

نتعجب للسهولة التي استولى بها المرابطون على المغرب والأندلس وكذلك للسرعة التي انهارت بها الدولة العظيمة التي أسسوها رغم تحمس الفقهاء لدعوتهم غربا وشرقا. من الناس من يقنع بالتفسير الخلدوني المبتذل والقائل إن سبب الانحطاط هو الضعف الذي يلحق المحارب البدوي المتعود على حياة الشدة والتقشف عندما ينغمس في حياة لينة مترفة. ولكن من الباحثين المحدثين من ينبهنا إلى ما حصل في بداية الدولة حينما عاد يحيى بن عمر إلى الجنوب وترك الشمال ليوسف بن تاشفين،فيرون في ذلك سبب انفصال الجنوب عن الشمال وانحطاط العلاقات التجارية بين المغرب وإفريقيا.

كل منا يتذكر تاريخ الدولة السعدية ولجوء عبد الملك وأخيه أحمد إلى الأتراك ثم عودتهما إلى المغرب وانتصارهما في معركة وادي المخازن. فيربط المؤرخون المعاصرون هذه الهجرة وما والاها من التعرف على أراض جديدة ومن تقرب من الساسة العثمانيين وبين مشروع الدولة السعدية الأعظم، أي استعادة المغرب لدوره التقليدي في حقل التجارة الصحراوية. ومهما يقل البعض عن كيفية تحقيق المشروع، تبعا لآراء الفقهاء المعارضين له، فلا يمكن أن ينكر أحد أن المخططين له كانوا على علم بمدى أهمية اتصال المغرب بإفريقيا عن طريق تجارة الصحراء. وإذا فسرنا قوة الدولة السعدية أيام أحمد المنصور الذهبي بتحقيق مشروعه أي بتجديد روابط المغرب بإفريقيا، فلا مناص من إرجاع انحطاط المغرب بعد موته والفوضى التي عمت البلاد مدة خمسين سنة وكادت أن تعصف بوحدة الوطن إلى خلل طرأ على العلاقات المذكورة. يكفي هذا القدر من الأمثلة.

الحقيقة أننا نجد الدليل على أهمية روابط المغرب بإفريقيا في كل صفحة من صفحات التاريخ المغربي. نجدها إيجابية ونجدها سلبية، بمعنى أننا نلمح آثارها في قوة الدول وانبساطها وفي ضعفها وانحطاطها إلى حد أنه يجوز للقائل أن يقول إن المغرب يعلو ويرتفع بتدعيم وترسيخ روابطه بأفريقيا ويهبط وينحدر بضمور تلك الروابط وانحلالها وضياعها.

كلما سمعنا عبارة التجارة الصحراوية تبادرت إلى ذهننا كلمة الذهب. هل تتلخص العلاقات المغربية الإفريقية في هذه الكلمة ؟ كما توحي بذلك الكتب المتداولة.

من مسلمات التاريخ الاقتصادي العام أن الحركة التجارية في العالم القديم، من القرن التاسع الميلادي عندما بدأت أوروبا تستيقظ من السباة الذي لحقها بعد خضوعها لحكم الجرمان إلى القرن الخامس عشر وبداية حركة النهضة، قامت أساسا على العملة الذهبية. وهي عملة كانت تضرب في الشمال الإفريقي من تبر يجلب في معظمه من إفريقيا عبر الصحراء. وهذا ما يفسر ظهور المغرب الأقصى كقوة فاعلة على الساحة الأوسطية. أحيلكم في هذا الصدد إلى ما كتبه موريس لومبار وغيره[1].

وترافق كلمة الذهب كلمة الرقيق عند الكلام على تجارة الصحراء. لكن يجب في هذا الصدد أن نتجنب الشطط وأن لا نسحب على إفريقيا الغربية ما قد يكون صحيحا

---

(1) – Maurie Lombard : L'Islam dans sa première grandeur, Flammarion, 1971.

– Henri Pirenne, : Mohammed et Charlemagne, Alcan, 1937.

بالنسبة لافريقيا الشرقية وعلى عصور سابقة ما قد يصح في شأن قرون لاحقة. كما أنه لا يجب أن نخلط معاني الكلمات التالية : عبد، أسود، زنجي، أفريقي. في كثير من النصوص وخاصة الأندلسية قد يكون العبد أبيض أبلق وقد يكون الأسود بربريا أسمر. بل تجدون اليوم في متحف مدريد الأثري قاعة مخصصة لإسبانيا تحت حكم المغيرين الأفارقة. ومن هم هؤلاء الأفارقة ؟ المرابطون والموحدون والمرينيون. لم تطرح قضية العبيد الأفارقة في المغرب إلا في القرن السابع عشر الميلادي وذلك في إطار مشكل اثقل كاهل الأمة مدة قرون وهو مشكل الضعف الديموغرافي، عكس ما يتوهمه الكثيرون الذين يتأثرون بحالة اليوم. فاضطرت السلطة المركزية إلى تجنيد العبيد وبذلك أضرت بمصالح السكان في المدن والقرى وتسببت في معارضة عنيفة كما هو معلوم في تاريخ المولى إسماعيل. لكن هذه القضية بالذات تدل على أن عدد الرقيق كان محدودا في تلك الفترة وبالأحرى في الفترات السابقة. لا شك أن تجارة الرقيق كانت معروفة في المغرب وفي إفريقيا عامة وبالتالي كان الرقيق ضمن البضاعة المجلوبة من الجنوب إلى الشمال دون أن تحتل الصدارة كما يتوهمه بعض المغرضين.

ونزيد إلى المادتين المذكورتين مواد أخرى متنوعة تومىء إليها كتب الآداب بالعبارة المألوفة : ما خف وزنه وثقل ثمنه. أي المواد الموجودة في ساحل إفريقيا والمنعدمة في المغرب كبعض الأعشاب والمعادن الصالحة للتزيين والتداوي أو الجلود والريش المستعملة للتأثيث.

ونصل الآن إلى نقطة غامضة. التجارة تبادل، إذن ماذا كان يصدر المغرب لكي يجلب كل هذه المواد ؟ يقول البعض : كانت التجارة المذكورة على مرحلتين : مرحلة صحراوية معروفة التفاصيل ومرحلة إفريقية مجهولة تماما وذلك منذ العهد الأول. ويقول فريق ثان إنها كانت تقوم أساسا (على الأقل قبيل قيام الدولة المرابطية) على مقايضة الذهب بالملح. ويدعي فريق ثالث أن المواد المجلوبة لم تكن ذات قيمة في عين الأفارقة فكانوا يقبلون أي شيء عوضها حتى شقف الأحجار وقطع الزجاج. بعض هذه التأويلات يرجع إلى عهد هيرودوت اليوناني ونجدها بالحرف عند ابن بطوطة. مما يدعونا إلى الحذر. إلا أن التجارة نشاط مادي يترك أثرا فوق أو تحت الأرض. فإذا كان المغاربة يصدرون مواد فخارية، معدنية، نسيجية، فلابد أن يكتشف يوما بعضها في أرض إفريقيا. وهذا موضوع نتطرق إليه في القسم الثاني من هذا الحديث.

غرضي أن أؤكد في هذا المقام أن العلاقات المغربية الافريقية لا تنحصر في التجارة. فهي كذلك وربما بالدرجة الأولى إنسانية وثقافية. ولذلك يجب الانكباب على دراسة دور الزوايا خاصة في القرنين الأخيرين ابتداء من عهد السلطان محمد الثالث. وأذكر بالمناسبة

أن زارني مرة طالب سوداني كان مسجلا في الجامعة الأميركية ببيروت يبحث حول نظام الموحدين الاقتصادي. فحدثني عن موضوعه ولاحظ استغرابي لاختياره الموضوع المذكور فقال لي : لو كنت تعرف بالأستاذ السوداني وأهله للمست أن كثيرا من مظاهر ثقافته لاتفهم إلا إذا قورنت بأصولها المغربية. ثم أعطاني مثلا بسيطا قال : لا تجد أحدا في مصر يفهم كلمة براد ونحن في السودان نسمي الإبريق برادا.

أمامنا إذن متسع للبحث عن الآثار الإفريقية في الثقافة المغربية وآثار المغربية في الثقافة الافريقية (ثقافة عربية على وجه التحقيق). قد تتساءلون : هل يمكن التمييز بين آثار مغربية وآثار عربية إسلامية عامة ؟ نعم التمييز ممكن : في اللباس، في الطبخ، في مظاهر الزينة، في طقوس الأفراح، كذلك في الخط، في مخارج الحروف، في الاختيارات الفقهية...الخ. وأذكر أن الحجاج والمسافرين كانوا في القرون القليلة الماضية يلاحظون أن تلاوة القرآن تختلف في مسجد وجدة عنها في أول مسجد بعد حدود المغرب الشرقية. نستطيع إذن أن نشخص التأثير المغربي في الحياة الاجتماعية الافريقية حتى يتضح لنا أن هناك بالفعل آثارا إسلامية. ومن أراد أن يلمس عمق التقارب الحاصل في ميدان التربية الأصلية بين المغرب وبلد إفريقي كالسنيغال فما عليه إلا أن يرجع إلى القصة المؤثرة التي ألفها في الموضوع الشيخ حميدو خان بعنوان **المغامرة الملتبسة**[2].

هذه معلومات قد تبدو للبعض كافية لتسويد صفحات الكتب والمجلات فيقول : لماذا ادعيتم جهل حقيقة العلاقات المغربية الافريقية. هنا يبدأ القسم المنهجي من حديثنا : إن المعلومات التي أشرنا إليها متواترة وحسب المتعارف عليه في فن النقد التاريخي التقليدي إنها موثقة. لقد قيل : الحدث التاريخ هو الحدث الذي كانت له عواقب. أي أننا إذا تصورنا تسلسل الأحداث دونه اقتنعنا في الحال أن ذلك التسلسل سيكون مخالفا لما حصل بالفعل، ولقد قدمنا براهين وأمثلة على أن مسيرة المغرب الأقصى قد حادت عن طريقها الطبيعي والمنتظر، عندما انقطعت أو ضعفت في ظروف معينة علاقاته بإفريقيا. يحق لنا أن نستخلص أننا برهنا في آن على حقيقة الروابط المذكورة وعلى أهميتها في تحديد مجرى التاريخ المغربي، ماذا يمكن للمؤرخ أن يبتغي وراء هذا ؟

الواقع أن المؤرخ المعاصر يتوق إلى ما فوق ذلك. شأنه شأن كل الباحثين حتى علماء الطبيعة والرياضيات. يتوق إلى اليقين والدقة عبر التخصيص والترقيم والمقايسة[3]. هذه آفاق قد تبدو بعيدة المنال في موضوع كموضوعنا. رغم هذا لابد من التذكير بها ولو تشجيعا على التعمق والابداع.

---

(2) Chaikh Amidou Kâne, L'Aventure ambiguë, Julliard, 1961.

(3) Quantification.

مما يدفعنا إلى هذا التساؤل أمر بسيط قد أشرنا إليه سابقا. ان التعامل بين الأفارقة وغيرهم في ميدان التجارة نجده موصوفا بنفس العبارات عند هيرودوت وعند ابن بطوطة والفارق الزمني بينهما يفوق الثمانية قرون. هل بقي الأمر على حاله طوال هذه المدة كلها أم هل المؤلفون القدامى كانوا ينقلون الواحد عن الآخر بدون تورع ؟ افتحوا كتابا معاصرا عن تاريخ روما تجدون إشارات إلى العلاقات الرومانية الافريقية لا تكاد تختلف عن التي وصفناها. ارجعوا إلى كتب صدرت في القرن الماضي حول قوافل المغرب تجدون تصورا للأوضاع يكاد يكون مطابقا لما نقرأ في تواريخ المرابطين والموحدين وبني مرين إذن نفس المادة تحال على أحقاب متباعدة. معلوماتنا عامة جدا وفضفاضة إذ تنطبق على أحوال مختلفة. والتاريخ كطريقة في الفهم والتأويل لا يقنع بالعموميات. إذا كان أريسطو قد حق ميدان العلم بالعموميات فإنه كان يعني العلم الطبيعي ولهذا السبب بالضبط نحيي التاريخ من النطاق الذي رسم حدوده.

لقد اتضح للدارسين أن علمية التاريخ مبنية أساسا على معرفة الخصوصيات أي محاولة إدراك خاصية كل جزئية من الجزئيات التي يتركب منها الحدث المدروس وإذا تعلق الباحثون اليوم بالكم والقياس في المعلومات التاريخية فلأن المعرفة بالكم أكثر تخصيصا من المعرفة بالكيف في الشؤون التي تبدو ضرورية لحياة الفرد والجماعات مثل الانجاب والإنتاج والتوابل. التاريخ إذن معرفة الجزئيات وهو أيضا معرفة التطور أي تبين عتبات الانتقال من طور إلى آخر صعودا وهبوطا. تصدر اليوم كتب عن الماضي مصاغة في شكل صور ثابتة (طابلوهات) لكن عند التدقيق نجدها إما ساكنة بالفعل فيسأم منها القارىء وإما حاوية في غضونها معاني التغير أي أنها تفترض في القارىء معرفة السوابق واللواحق بحيث أنه يرسم تلقائيا في ذهنه خط التطور ويقارن باستمرار ما يقرأ بما سبق ولحق من أحداث.

معلوماتنا الحالية حول علاقات المغرب بإفريقيا، رغم غزارتها وتواترها، تقدم لنا صورة ثابتة. لابد أن ننفخ فيها الحياة بالتمييز بين جزئياتها ورسم خط تطورها. وذلك موكول لبحث المستقبل الذي يجب أن يتجاوز مرحلة الترتيب والتلخيص. البحث في الجزئيات المشخصة حسب الزمن والمكان والتنظيمة الاجتماعية والبحث في خط التطور بالنسبة لكل جزئية أكانت مادية أوثقافية أو أدبية. هذان هدفان يجب إدراكهما ليعود فهمنا لموضوعنا فهما تاريخيا بالمعنى الحديث. وإذا طلبنا بتحقيق هذين الهدفين فلأن ما يوجد بين أيدينا من مؤلفات لا يشفي الغليل في أي منهما. لماذا ؟ بعبارة أخرى ماهي أصول المعلومات التي لخصناها في القسم الأول من حديثنا ؟

نستقي هذه المعلومات من كتب الرحالة كابن حوقل وأبي عبيد البكري والشريف الإدريسي وابن فضل الله العمري وابن بطوطة ومن كتب المؤرخين كابن عذاري وعبد الواحد المراكشي وابن خلدون وعبد العزيز الفشتالي ومن كتب الأدباء كالمقري والفقهاء كالونشريسي. فنظن أن الأصل وثائق مكتوبة بسبب تعدد المصادر وتواتر الأخبار الواردة فيها. الحقيقة والواقع أن الأصل أصل المعلومات الواردة عند هؤلاء جميعا هو الرواية الشفوية. الأدباء ينقلون عن المؤرخين والمؤرخون عن الرحالة والرحالة يصفون جميع المراحل، التي قطعوها والتي سمعوا بها وهذه في الغالب أكثر من تلك. وصل اليعقوبي المتوفى سنة 891/278 إلى منطقة تلمسان وسمع هناك بالتجارة الصحراوية فدون ما سمع. سافر ابن حوقل المتوفى سنة 977/367 إلى الأندلس وسمع هناك أخبار جنوب المغرب فكتب عنها. نقرأ كتاب الإدريسي المتوفى سنة1166/561 وندرك أن معلوماته أقل دقة من معلومات البكري المتوفى سنة 1094/487 بل نستنتج أنه ينقل عنه. نطالع أوصاف ابن بطوطة المتوفى سنة 1377/779 ونتذكر أن البعض تشكك في صحة رحلته إلى عمق بلاد السودان، عندما نقول أن المعلومات مبنية على الرواية، لا على المعاينة، فإننا لا نعني أنها خاطئة. فهذا ابن فضل الله العمري المتوفى سنة 749/ 1349 يكتب عن المغرب المريني وعلاقاته بالسودان ويزودنا بمعلومات دقيقة نقطع بأنها صحيحة عندما نقارنها بما نقرأ في وثائق أخرى لا نزاع في صحتها، كل ذلك وهو لم يبرح القاهرة واكتفى باستنطاق التجار والحجاج والسفراء وطلبة العلم.

المعلومات إذن قد تكون صحيحة ولكنها في كل الأحوال مبنية على الرواية الشفوية وهذه كما نعلم لا تتقيد بالزمن. قد يحدثك الراوي عن حالة يظن أنها مازالت قائمة مع أنها في الواقع قد انهارت منذ عقود. وهذا هو سر التردد الذي نلاحظه عند الرحالة والمؤرخين والجمود الذي نستخلصه منها ونضفيه على أحوال التجارة الصحراوية. يسافر اليعقوبي في ربوع المغرب الكبير ويعطينا صورة عن الحالة العامة السياسية والدينية والإقتصادية، اعتمادا على أقوال الرواة. لكن هذه الحالة قد تكون صحيحة بالنسبة للقرن السابق لا للقرن الذي عاش فيه. وهذه نقطة حساسة جدا عندما يتعلق الأمر بكاتب مثل الإدريسي.

لا أحد ينكر أن الشريف الإدريسي أكبر جغرافيي القرون الوسطى وهذه المكانة المرموقة بين علماء الجغرافية تميل إلى ترجيح أقواله وأحكامه على سواها. فنضيف إلى العهد الموحدي، العهد الذي عاش فيه حالة قد تكون في الحقيقة من صميم بداية عهد المرابطين. نخطىء التأويل الصحيح بسبب ثقتنا به والاعتماد الكلي عليه. لكي لا نقع في مثل هذه

الأخطاء، لكي نخرج من العموميات يجب أن نتذكر دائما أن المصادر المكتوبة حظها من الصحة التاريخية حظ الروايات الشفوية.

وأنتم تعلمون أن تاريخ إفريقيا قبل الاحتلال الأوروبي مبني على الرواية الشفوية ولذلك السبب قامت حركة منهجية مهمة تهدف إلى تحديد طرق استعمال تلك الرواية. يمكن لنا أن نستفيد، ونستفيد كثيرا، من التدقيقات المكتسبة في هذا المضمار، إذ لا فرق أساسا بين البكري وهو يدون في القرن الحادي عشر الميلادي ما يسمع من أخبار وبين الأوروبي الذي يسجل اليوم أو قبل خمسين سنة مادة مشابهة يستقيها من راوي قبيلة في قلب إفريقيا.

عامل آخر ساعد على تعميم، إن لم نقل تعويم، معرفتنا للعلاقات المغربية الإفريقية هو ما أسميه بالتحليل القبلي وأعني به سحب تعليلات مبررة في فترة معينة على فترات تبدو متشابهة أو تفسيرات خاصة ببلد معين على بلد آخر قريب من الأول ثقافيا أو بشريا أو جغرافيا. التحليل القبلي بعبارة أخرى هو اعتبار بعض المظاهر المتواترة قوانين قارة ومن الملاحظات العميقة لابن خلدون واحدة تهم هذه النقطة بالذات. يقول : «ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الاعصار ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة... فربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها. فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كبيرا فيقع في مهواة من الغلط». يجب إذن على المؤرخ الفطن أن يفهم أن التواترات التي يلاحظها في فترة ما قد لا تبقى جارية في فترة لا حقة فلا يفسر أحداث العهد الثاني بأسباب العهد الأول ان التاريخ لا يحتمل إلا التعليل العيني الموثق. أما التواترات أو ما يسميه البعض قوانين تاريخية فليست سوى إشارات يجب تمحيصها مجددا أمام كل حادثة. من التحليل القبلي أن نقول مثلا : المغرب لا يحوي معادن ذهبية. العملة الموحدية جيدة وغزيرة. إذن التجارة الصحراوية كانت لا تزال نشيطة أيام دولة عبد المومن وخلفائه. استخلاص منطقي مجرد يدل على الامكان فقط، بمعنى أن لا شيء يدفعنا إلى الشك في وجود الشيء إن صح وجوده وقام الدليل عليه من طريق آخر. **الامكان** ليس حجة في حد ذاته إذ، في المثل الذي سقناه، جودة العملة الموحدية قد تحتمل تفسيرات غير التي ذكرت.

واجهنا قبل قليل مفهوم الامكان الموضوعي. لنطبقه على مستقبل الدراسات حول علاقات المغرب بإفريقيا. ويعني المستقبل أمرا واحدا : التجديد الذي يتلخص في التدقيق

والتشخيص المدعمين بالأرقام بحيث إذا تكلمنا مستقبلا على تلك العلاقات فإننا نميز هذه الظاهرة عن تلك وهذه الحقبة عن تلك.

إن تجديد الدراسات مواز لتدعيم العلاقات الحالية والكل ممكن موضوعيا، ألحنا إلى ضرورة إعادة النظر في المصادر المتوافرة حاليا ونقدها على ضوء المناهج العصرية المستعملة لتأويل أنواع الروايات الشفوية. نحن أهل كتاب وكتابة، نظن تلقائيا أن نهاية الدقة تأويل المكتوب حسب الطرق المعروفة. الأفارقة أهل رواية غير مدونة إلى حد أن أحد علمائهم قال : عندما يموت شخص عجوز فكأنما تحرق مكتبة. فاضطروا بإعانة باحثين غربيين إلى إبداع مناهج جديدة لتأويل الروايات بل الأساطير. فلا يخامرني شك أن التعاون بيننا وبينهم، بين معاهدنا ومعاهدهم، سينفعنا جميعا، ينفعنا نحن بصفة خاصة، لا في الميدان الذي نحن بصدده فقط بل كذلك في ميادين أخرى نتكل فيها كثيرا على المدون ولا نلتفت بالقدر الكافي إلى الرواية الشفوية المتواترة منذ قرون.

ومن المنتظر أن يتطور هذا التعاون إلى بحوث إثنوغرافية أعم. تمازج دائما في إفريقيا السوداء البحث التاريخي والبحث الاثنوغرافي لأن طبيعة المجتمع الافريقي فرضت ذلك... التمازج على الباحثين. ومن المعروف أن الاثنوغرافية لا تحظى عندنا بالعناية الكافية، بل إننا نزدري المظاهر التي تكون مادة دراساتها، نعرض عنها ونود لو أنها اندثرت وأصبحت في خبر كان... غير أن التجربة تدل على أن الشيء لا يذوب بسبب إهمالنا له، بل يبقى يؤثر في الخفاء وهذا صحيح بالنسبة لكل المجتمعات حتى تلك التي تغلغلت فيها الصناعة الآلية العصرية وطمست فيها العادات الموروثة. المجتمع الافريقي لا يقف موقفنا من العادات القديمة. لنا إذن ما نتعلم منه بقدر ما لدينا ما نزوده به. التأثير متبادل بين المجتمعين : كما نجد هنا في المغرب الأقصى أصولا كثيرة للثقافة الافريقية المدونة من دين وفقه وكلام وتصوف، يمكن أن نتصور بسهولة جذورا إفريقية لعادات كثيرة منتشرة في جميع أنحاء المغرب وفي كل أطوار وطبقات المجتمع المغربي. وإذا صحت مثل هذه الافتراضات والتصورات فليس من النتائج المبتذلة الهينة أن نعرف أصل ما يلون حياتنا اليومية من لباس وطبخ وطرب وتداوي وما يملأ سهراتنا من أمثال وقصص.

لاشك أنكم لا حظتم أني لم أستعمل كلمة وثائق عندما أتكلم عن المصادر المكتوبة إذا الوثيقة لها معنى خاص في الصناعة التاريخية. من خاصيات الوثيقة المعاصرة والمباشرة. قد تتضمن المصادر بعض الوثائق وقد لا تحتوي على أي شيء منها. كلام ابن خلدون على بعض سلاطين بني مرين وثيقة، كلامه على مقابلته مع تيمورلنك، وعلى قضاة القاهرة

وثيقة وماعدا ذلك وشبهه فهو مصدر مكتوب فقط. إن مصادرنا حول العلاقات المغربية الافريقية كثيرة ولكن الوثائق عنها قليلة يجب إذن أن نكثف الجهود للتنقيب عن الوثائق بالمعنى الدقيق هنا في المغرب وفي الصحراء وفي إفريقيا الغربية والساحلية. في السينغال والنيجر ونايجريا معاهد للمخطوطات العربية. لابد أن يكون للباحثين المغاربة فيها حضور ومشاركة. ولا يتأتى ذلك إلا إذا نظم هنا معهد للوثائق المتعلقة بإفريقيا. ولا نعني بالوثائق الرسمية فقط، إذ قد تكون هذه قليلة، بل نعني وثائق التجار والزوايا والسلطات المحلية كالتي نشرت مؤخرا عن الزرواليين[4].

ولا نعني أيضا الوثائق الصحائف المكتوبة فقط. إن معظم تاريخ إفريقيا يكتب اليوم اعتمادا على الرواية الشفوية من جهة وعلى الوثائق المادية أي الكشوف الأثرية من جهة ثانية ولن تعرف العلاقات المغربية الأفريقية بكيفية مفصلة، دقيقة، مرقمة، أي بكيفية تاريخية فعلا، إلا إذا اكتشفت خفايا الطرق والمحطات الصحراوية. مادامت سجلماسة وتاودبني وعشرات المحطات على مسالك الصحراء أسماء تحكي عنها قصص دونت في أوقات غير محدودة بقلم الرحالة وأدرجت في كتب المؤرخين والأدباء إلا وبقيت معلوماتنا حولها عامة، غامضة، ملتبسة. ولنا فيما أنجز من حفريات في بلدة تغداوست بموريتانيا دليل واضح على التغيير الجذري الذي تدخله الأرخيولوجيا في معرفتنا المستقاة من التاريخ المكتوب.

إني أعلم أن هذا تطلع مستقبل بعيد. لكن انتظار الظروف المناسبة لتحقيق مشروع ضخم لا يتعارض مع الشروع في تكوين رجال يقومون على إنجازه عندما تجتمع الأسباب. والتكوين المذكور يقتضي فيما يقتضي تداخل الاختصاصات، التعاون بين المؤرخين واللغويين والجغرافيين والأرخيولوجيين والكيماويين والجيولوجيين... يجتمعون لإنجاز مشاريع بسيطة تمهيدية تمس موضوعنا ولو من بعيد. يمكن مثلا اعتماد الاستطلاع الجوي والتحليل الكيماوي والمسح الجيولوجي في محاولة لضبط مراحل طريق التداخل الساحلية. يوجد في داكار مخبر لتحديد تواريخ الكشوف الأثرية بناءا على إشعاع مادة الكاربون 14. لماذا لا ينظم تعاون ولو على شكل فترات تدريبية بين جامعتكم والجامعة السينغالية. تهيء الرجال تحسبا لتنظيم حملة استكشافية دولية لموقع سجلماسة الأثري الذي طالما تطلعت إليه همة علماء الآثار في جميع أنحاء العالم.

أيها السادة الأفاضل،

هذه إشارات وإيحاءات أستخلص منها ما يلي :

(4) Paul Pascon, La Maison d'Iligh, Rabat, 1984.

- إن علاقات دولة المغرب الأقصى مع إفريقيا وخاصة إفريقيا الغربية قديمة قدم التاريخ، تعززت وتعمقت بفضل الدعوة الإسلامية، دعوة المساواة والتآخي. لكن رغم قدم هذه العلاقات فإن المجال لا يزال بكرا. ليس موضوعنا هذا من الموضوعات التي يقال عنها قد قتلت بحثا. موضوعنا أرض مكسوة بالأعشاب تنتظر من يرعاها لتفدق عليه من ثمارها الوافرة.

إن دراسة العلاقات المغربية الافريقية، في الاتجاه الذي رسمنا خطوطه، تتطلب إمكانات وطاقات، منها ما هو من اختصاص السلطة المركزية ومنها ما هو من اختصاص المؤسسات المحلية. واختصاص الجامعة هو تكوين الرجال القادرين على تنفيذ المشاريع التي تقترحها السلطات العامة. والتكوين المذكور منوط بتحقيق برامج جزئية تخطط لها خلية متعددة الاختصاصات يلتقي فيها باحثون بكفاءات ومؤهلات مختلفة يتبادلون الآراء حول مشكل المنهج الذي أشرنا إليه. إن التجديد المنهجي مواكب للبحث الميداني، يسبقه حينا ليفتح له آفاقا مبتكرة ويشفعه حينا آخر ليستخلص العبرة من نتائجه واكتشافاته وإن كان سبيل الأرخيولوجيا صعب لما يتطلبه من نفقات فإن طريق الأثنوغرافية نسبيا سهل خاصة في منطقة غنية مثل منطقتنا.

إن فهم روابط المغرب بالبلاد الافريقية الأخرى، على حقيقة عمقها وفي نطاقها الواسع، جزء من مشروع فهم أنفسنا. ليس مشروعا ظرفيا، وليد اندفاعات وقتية عابرة، بل هو مشروع مرسوم في هياكل وبنى كياننا، أوضع في مقدمة الأوليات أو أخر مؤقتا لأسباب قاهرة. و بقدر ما الكشف عن حقيقة الروابط مع إفريقيا مرسوم في ماضينا بقدر ما التعاون معها مضمن في ثنايا مستقبلنا. نحن إذن بصدد مشروع طويل الأمد، متوالي الفصول متعدد الأشكال.

إن الدولة، على لسان مخطط سياستها، صاحب الجلالة الملك المعظم، وعلى لسان وزيره في التربية الذي يرأس اليوم الحكومة، قد أظهرت أنها واعية كل الوعي بأهمية الواجهة الجنوبية الإفريقية وأنها مصممة العزم على تدارك ما غاب أو تلاشى في هذا المضمار فعلى جامعتكم الفتية أن تستغل ميزة موقعها الجغرافي وأن تتهيأ لتكون في مقدمة منفذي هذا المشروع العظيم.

إن أبناء منطقة أكادير عرفوا دائما بحبهم للعمل والعلماء وبانصرافهم للعلم الجاد. لقد قاموا بمبادرات ناجحة في الاتجاه المذكور بتنظيم مهرجانات فنية ومناظرات ثقافية مهم إفريقيا والعالم العربي أو الإسلامي. فلا يخامرني شك أنهم سيندفعون بحماسهم المعهود

لتحقيق المبادرة المولوية المتممة للمسيرة الخضراء المباركة التي ستحتفل بعد أيام بذكراها العاشرة والتي أعطت للمغرب متنفسا جديدا ووسائل إضافية للاتصال بإخواننا في الجنوب.

في حدود مسؤولياتنا الثقافية التربوية وفي حدود ما تقتضيه مناهج البحث التاريخي الحديث لنعمل جميعا على تعميق الروابط التي تجمع المغرب بشعوب الشطر الجنوبي من إفريقيا لنكون كلنا في خدمة الأخوة الافريقية والله الموفق لخير الأعمال والسلام.

منشورات الكلية

1. صدر ضمن منشورات الكلية

1. دليل الكلية 1984 — 1985
2. دليل الكلية 1985 — 1986
3. دليل الكلية 1986 — 1987
4. دليل الكلية 1987 — 1988
5. دليل الكلية 1988 — 1989
6. دليل الكلية 1989 — 1990
7. مجلة الكلية «دراسات» العدد الأول (1987).
8. مجلة الكلية «دراسات» العدد الثاني (1988).
9. مجلة الكلية «دراسات» العدد الثالث (1989).
10. مجلة الكلية «دراسات» العدد الرابع (1990).
11. أعمال ندوة أكادير الكبرى : محور التعمير والجغرافيا
12. أعمال ندوة أكادير الكبرى : محور الثقافة والفكر.
13. أعمال ندوة أكادير الكبرى : محور التاريخ.
14. مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن 19 (سوس 1882/1906).

عمر آفا

15. الدروس الافتتاحية :

أ. المغرب العربي وآفاق الاندماج الاقتصادي

ذ. حبيب المالكي

ب. علاقات المغرب بإفريقيا ملاحظات أولية :

ذ عبد الله العروي

ت. الإنسان ومشكل التصحر في المناطق الجافة :

ذ. إدريس الفاسي

ج. بنو زهر : نظرات في تاريخ أسرة أندلسية :.
ذ. محمد بنشريفة

ح. شعر الصحراء :
ذ. عباس الجراري

د. مأساة شيخ المعرة :
ذ. أمجد الطرابلسي

16. أطلس مدينة أكادير الكبرى (لوحة رقم 7أ، السياحة في أكادير).
للأستاذ محمد بريان

2. منشورات تحت الطبع :

1. أعمال ندوة تارودانت
2. مفهوم الشخصية وتمثله في المسرح المغربي «الشخصية التراثية لفترة السبعينات نموذجا. عز الدين بونيت

3. منشورات في طريقها إلى الطبع :

1. أعمال ندوة الصويرة
2. دليل الكلية : 1991 — 1992
3. مجلة الكلية «دراسات» العدد الخامس 1991.
4. أعمال ندوة الانسان والإبل في إفريقيا
5. تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية
أحمد التوفيق
6. جمع وتخريج ودراسات مرويات موسى بن عقبة في المغازي
باقشيش محمد

Cours Inaugural

Année Universitaire : 1986 – 1987



ROYAUME DU MAROC
UNIVERSITE IBNOU ZOHR
FACULTE DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES
AGADIR

LES RELATIONS ENTRE LE MARGHREB ET L'AFRIQUE

Remarque préliminaires

Pr. Abdallah LAROUI

Faculté des Lettres
et des sciences Humaines
RABAT
Membre de l'Académie
du Royaume du Maroc
RABAT